حضارة وديان النيل ودجلة والفرات

رأي في أسباب زوالها

من خطبة للاستاذ الدكتور صالح بك حمدي مدير مدرسة الطب الملكية ومستشفى قصر العيني ، ألقاها مساء الاربعاء ٦ ذي الحجة في حفلة تكريم أقامها له طلبة مدرسة الطب

كانت مصر أعرق الامم مدنية ، بل نبتت المدنية في مصر وبقيت فيها قروناً عديدة قبل أن تنتقل الى باقي العالم

فاكتشاف المعادن وسبكها ولد في مصر ولم يخرج منها الا بعد مئات السنين ، وانتم تعلمون مقدار ما يدين به العالم لهذا الاكتشاف

واختراع الورق والكتابة والقراءة مهده مصر أيضاً ، ولولاه لكان العالم في حال غير هذا الحال

فالعالم مدين لمصر ديناً باقياً في عنقه وسيبقى في عنقه الى ما شاء الله

غير أن كل هذا العز الذي لا عز بعده ، والمدنية التي لا مزيد عليها ، والامبراطورية الضخمة التي ملكت ما كان معروفاً من المعمورة ، زال زوالا تاماً في فترة قصيرة ، واندثرت معالمه في قرون قليلة ، وصار العز لغير مصر ، والمدنية رائعة في غير ارض مصر ، ولم يبق من ذلك الماضي الباهر والمجد الزاهر الا تلك الآثار التي تقوم الآن دليلا على ذلك الماضي وتلك المدنية ، وتذكرة لما صارت اليه مصر وما كانت عليه

ثم تغلبت على مصر كل دولة أخذت من المدنية أوفر قسط ، ومن السؤدد أجزله : دولة تجيء ودولة تذهب والشعب المصري غاط في نومه ، لا يذكر الماضي ولا يعي الحاضر

لقد أصيبت دول بكوارث أشد مما أصيبت به مصر : فقد زال مجد الدولة اليونانية والرومانية ، ولكن بقيت في نفوس الشعب آثار مدنيتهم

وبعض تلك الانفة والعزة ، ولبثوا نشيطين يناضلون عن حريتهم و يذودون عن ذمارهم بتجدد كفاحهم من آن لآخر ، وينتهزون مايمر عليهم من الفرص

أما في مصر فكانت الكارثة تامة وكان المصاب كاملا ، ولم يعد في الامكان أن تصل بين حاضرها وماضيها ؛ فقد زالت مدنيتها زوالاً تاما ، واضحت مميزات الشعب المصري القديم ورجع الى الوراء رجوعا سريعا

ولم تشترك مع مصر في هذه الظاهرة الغريبة الا تلك الدول التي قامت على البقعة الهلالية من الارض التي تحيط بوادي (دجلة) و (الفرات) : فقد كانت لها مدنيات عفت ، وملك ضاع ، وبقي شعبها ذليلا خاملا لا يعرف عن ماضيه الا ما يقرأه في مؤرخات الغير

ولقد اهم المؤرخون والبحاث بمعرفة الاسباب التي أدت الى هذه الكارثة الغريبة ؛ وجعلوا يبحثون في كل ناحية عما سبب الانحطاط الغريب السريع ، وكيف في فترة قصيرة تبدل الحال وتغير الشعب من رجال أشداء أقوياء مفكرين مخترعين مكتشفين الى أناس ضعاف لا يقوون على التفكير والاختراع ، عاجزين عن الرحيل للغزو والاستعمار ؛ وكيف صاروا أذلاء بعد ان كانوا اعزاء وأمسوا كسالى مقهورين بعد ان كانوا نشيطين فاتحين : طمع فيهم البدوي والحضري ، وصارت تلك الرءوس المفكرة آلات مسخرة ...

انتحل كثير من هؤلاء البحاث المؤرخين اعذارا اختلفت باختلاف آرائهم ولكنهم لم يوفقوا للعثور على الاسباب الحقة

كنت أقرأ هذه الاسباب ولكنها ما كانت لتقنعني وما سلمت بها قط ، الى أن وفقوا اخيراً الى نظرية جديدة عن الاسباب التي أدت الى هذه الظاهرة الغريبة ، واتفق كثير منهم على أن سبب هذا الانحطاط وهذه الكارثة هو دخول الامراض الطفيلية كالملاريا والانكستوما والبلهارسيا

ان انتشال هذه المملكة من حالتها السيئة المحزنة يتوقف في كثير منه على ماتبدونه ونبديه من العمل المتواصل والمجهود الدائم والتفكير المستمر في مقاومة هذه الامراض واستئصالها

نحن وأهل (دجلة) و(الفرات) نقطن في وديان الانهار ، وفي جو رطب ، وفي منطقة زراعية خصبة تتخللها مستنقعات من الماء الراكد ، وهذه الامراض لاتترعرع وتنمو الا في مثل هذه النواحي و في تلك البيئات ، وكلما زدنا استثمارا للارض وتعميما للرى انتشرت هذه الامراض وفتكت

ينتج عن هذه الامراض فقر شديد في الدم كما تعلمون ، ويتسبب عنها خمول وهبوط في القوة المفكرة ، بحيث يصبح المصابون بها آلات متحركة في شكل انسان : لاقدرة لهم على التفكير الجدي والابتكار الصحيح ، ويزول عنهم كثير من صفات الرجولة كالاقدام والجرأة وتحمل المسئولية ، يميلون الى الكسل والخمول ، ولا يتحركون الا لكسب القوت الضروري

ونصيب مصر للاسف وافر من تلك الامراض التي تدك صرح الممالك ، وتنخر في عظام الامم . وأنتم تعلمون أن هذه الامراض تصيب أكثر من ثلاثة أرباع سكان القطر المصري . فهل بلاد هذه أمراضها وتلك نسبة الاصابة فيها يمكن أن تنتعش في هذه الحياة الحديثة حياة الكفاح والتجديد والتعمير ؟ وهل ينفع التعليم في شعب هذا حاله في حين أن العقل السليم في الجسم السليم؟

تعلمون مقدار المدنية والنشاط في الولايات المتحدة ، غير أن ولاية من هذه الولايات اصيبت بمثل هذه الامراض فبقى السكان أميين بنسبة لاتصدق ، رغم وجود مدارس في قراها ومدنها

يتضح لكم مما تقدم أن العبء الذي سيقع على الاطباء ثقيل جداً ، وأن العمل الذى يطلب منهم عمل شاق ، ولكنه السبيل الوحيد لنجاح هذا الوطن ورقيه

الحالة الصحية في مصر على أسوإها ، والعناية بها امر واجب مفروض على كل من يحب بلده ويريد له الخير ، لاسبيل الى علاجها الا اذا أعطيت المقام اللائق بها ، والا اذا وجدت من يدافع عنها دفاعاً مستمراً متواصلا عن غير ملل